Journal of Al-Quds Open University for Humanities & Social Studies No – (65) .July 2024
https: //journals.qou.edu/index.php/jrresstudy
E-ISSN: 2616-9843/ P-ISSN: 2616-9835

Prisoners in the Palestinian literature are live models of resistance: Ali Al-Jaafari as a role model

Mr. Aziz Mahmoud Alassa*

Researcher and Board Member of the Jerusalem Institute for Studies and Research,Phd Student, Al-Quds University, Palestine

Oricd No: 0000-0003-3171-7066

Email: aziz.alassa@yahoo.com

Received:

29/02/2024

Revised:

29/02/2024

Accepted:

17/04/2024

***Corresponding Author:**
aziz.alassa@yahoo.com

Citation: Alassa, A. M. Prisoners in the Palestinian literature are live models of resistance: Ali Al-Jaafari as a role model. Journal of Al-Quds Open University for Humanities and Social Studies, 6(65). Retrieved from https://journals.qou.edu/index.php/jrresstudy/article/view/4730

DOI: 10.33977/0507-000-065-008

2023©jrresstudy. Graduate Studies & Scientific Research/Al-Quds Open University, Palestine, all rights reserved.

- **Open Access**

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.

Abstract

Palestinian prisoners constitute living examples of steadfastness, confrontation, and failure to break in the face of the jailer, who uses excessive force in oppression and torture.

Objectives: The study aimed to:

(1) Documenting the creativity of Palestinian prisoners in confronting the jailer, (2). Identifying the hunger strike - the battle of the empty stomach - as a method of resistance to the occupation. (3) Recognizing the high level of sacrifice of the Palestinian prisoner. (4) Identifying examples of prisoners-martyrs remaining in the Palestinian national memory, (5) Identifying how to place the sacrifices and struggles of prisoners within the context of resistance knowledge that contributes to self-liberation.

Methodology: The study adopted the descriptive analytical approach and text analysis in tracking the heroism of Palestinian prisoners in Israeli occupation prisons.

Results: The study concluded:

(1) The majority of previous generations of Palestinian prisoners are military combatants, who were captured, (2) The successive strikes in prisons took place under the slogans of dignity and the right to live in dignity in prison. (3) Prison literature emerged, which became an important and original part of the Palestinian national narrative.(4) Palestinian prisoners are living examples of resistance, especially those who died as martyrs in captivity. (5) All sources of the study focused on the martyr prisoner Ali Al-Jaafari, as a model of resistance and confrontation of the jailer.

Conclusion: The Palestinian prisoners are living examples of resistance and steadfastness in general. The study revealed that the "prisoner martyr Ali al-Jaafari" was the most prominent model and motivator of resistance among his companions.

Keywords: Palestinian prisoners, the battle of the empty stomach, Ali Al-Jaafari.

الأَسْرى في الأدَبِ الفلسطينيّ، نَماذِجُ حَيَّةٌ لِلْمُقاومةِ: علي الجعفريّ أنموذجًا

أ. عزيز محمود العصا*

باحث وعضو الهيئة الإدارية في معهد القدس للدراسات والأبحاث، طالب دكتوراة، جامعة القدس، فلسطين.

الملخص

الأسرى الفلسطينيون يشكّلون نماذج حيَّة للصمود والمواجهة وعدم الانكسار في مواجهة السَّجَّان، الذي يستخدم القوة المفرطة في القمع والتعذيب.

الأهداف: هدفت الدراسة إلى:

(1) التوثيق لإبداعات الأسرى الفلسطينيون في مواجهة السّجّان، (2) التَّعَرُّفِ إلى الإضراب عن الطعام – معركة الأمعاء الخاوية– كمنهج مقاومٍ للاحتلال. (3) التعرُّف إلى المستوى العالي من التضحية للأسير الفلسطيني، (4) التعرُّف إلى نماذج من الأسرى الشهداء، الباقية في الذاكرة الوطنية الفلسطينية، (5) التعرُّف إلى كيفية جعل تضحيات الأسرى وكفاحهم ضمن سياق المعرفة المقاومة التي تسهم في التحرر الذاتي.

المنهجيّة: اعتمدت الدراسة المنهج الوصفيّ – التحليليّ، وتحليل النص في تتبع بطولات الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

النتائج: توصّلت الدراسة إلى الآتي:

(1) غالبيَّة الأجيال السابقة من الأسرى الفلسطينيين عسكريون مقاتلون، وقعوا في الأسر، (2) جاءت الإضرابات المتتابعة في السجون، تحت عناوين الكرامة، والحقّ في العيش الكريم داخل المعتقل، (3) نشأ أدب السجون، الذي أصبح يشكل جزءًا مهمًّا وأصيلًا في الرواية الوطنية الفلسطينية، (4) الأسرى الفلسطينيون نماذج حيَّة للمقاومة، لا سيَّما أولئك الذين قضوا شهداء في الأسر، (5) تعرضتْ مصادر الدراسة جميعها للأسير الشهيد علي الجعفري، كأنموذج للمقاومة والتصدّي للسجّان.

الخلاصة: الأسرى الفلسطينيون نماذج حيَّة للمقاومة والصمود على وجه العموم. وتبيَّن من الدراسة أنَّ الأسير الشهيد "علي الجعفري" كان الأنموذج الأبرز للمقاومة، والمحفّز لها بين رفاق دربه.

الكلمات المفتاحية: الأسرى الفلسطينيون، معركة الأمعاء الخاوية، علي الجعفري.

المقدمة

إنّ الأسرى الفلسطينيين هم الشريحة الأكثر وعيًا والأكثر قدرة على فهم ما يجري على الساحة المحلية والإقليمية والدولية من أحداث. كيف لا، وهم الذين قرّروا مواجهة الاحتلال الغاشم الذي اجتاح وطنهم وشتّت شعبهم. وبالتالي، فإنّهم هم الأقدر على صياغة العلاقة مع الاحتلال ووصفها والتعبير عنها بدقة، لسببيْن رئيسيْن:

- **الأول:** يعود إلى مستوى الوعي الذي يمتلكونه بأبعاده السياسيَّة والاجتماعيَّة والوجدانيَّة المرتبطة بالأرض والوطن والهويَّة.
- **الثاني:** يعود إلى احتكاكهم (المباشر) مع الاحتلال بصُوَرِه المُختلفة: السجّان، والمحقق، والمهندس، والطبيب... إلخ، وهؤلاء جميعهم يمارسون استراتيجيَّة الاحتلال القائمة على (قتل) روح انتماء الفلسطينيّ إلى قضيَّته، والقضاء على أيِّ نَفَسٍ للمقاومة، منْ خلال عوامل الإحباط التي يُشيعونَها في نفوس الأسرى بالذَّات.

لذلك، نجد أنَّ هناك عديدًا من الكتابات، في الأجناس الأدبيَّة المختلفة، التي وظّفتْ دقائق تلك التجارب وتفاصيلها كلّها في نصوصٍ وسرديّاتٍ مُشْبَعةٍ بالفكْر والمفاهيم الوطنيَّة والثوريةّ، تستحقُّ التوقف عندها بالدراسة والتحليل. مع ضرورة الإشارة إلى أنَّ تلكَ النصوص تُعَدُّ، في معظمها، مصادر مهمة جدّاً في التوثيق للقضيَّة الفلسطينيَّة، والتوثيق لممارسات الاحتلال وقسوته وشراسته في التعامل مع الأسرى؛ فلم يُعرف عن الاحتلال أنَّه سعى – منْ تلقاء نفسِه– إلى منْح الأسرى الفلسطينيين جميع ما تأمر به القوانين واللوائح والمواثيق الدوليَّة من حقوق للأسرى، وإنَّما كان الأسرى الفلسطينيون ينتزعون العديد من حقوقهم من الاحتلال بإرادتهم وإصرارهم وتضحياتهم، واستخدامهم لأدوات الصراع التي يمتلكونها، التي أقساها الإضراب حتى الموت، تعبيراً عن إرادة التحدّي لذلك المحتل الذي لا يُراعي إلّاً ولا ذمَّة.

ومن أكثر القضايا التي مارسها الأسرى الفلسطينيون، وأوجعت الاحتلال وأربكته، وجعلته يدور حول نفسه أمام المنظمات الدولية المختلفة، حرب الأمعاء الخاوية منهجاً مقاوماً، وأداة قتال في الوقت نفسه، من أجل إرغام العدو– السجّان – على الرضوخ لتحقيق مطالب الأسرى، لتصبح أمورًا مباحة ومسموحة بعد أنْ كانت محرَّمة قطعيًّا؛ فالإضراب عن الطعام هو أقسى درجات الإرادة والصمود، الذي يترك في السَّجَّان أثرًا وتأثيرًا سيكولوجيًّا يجعله واهنًا كخيط العنكبوت، مهما كانت قوته وجبروته. ولعلّ ذروة هذا كلِّه تكمُن في تلك اللحظة التي يُقْبِلُ فيها الأسير على الموت، بلا هوادة، ودون خوف أو ارتباك، ويجعل من جسده جسرًا منيعًا يعبر عليه الأحياء من زملائه، والأجيال القادمة من الأسرى.

يحصر الأسير المحرر صالح أبو لبن إضرابات الأسرى الفلسطينيين، وقد عايش غالبيتها، في الآتي:

1. في العام 1968م أنهى أسرى سجن بيت ليد إضرابهم في اليوم الثامن بنصر كبير على السجّان (أبو لبن 2016، ص: 60).
2. في العام (1970م)، وفي سجن رام الله، شهد اليوم الأول للإضراب هجومًا شرسًا لإدارة السجن على الأسرى المضربين، حتى أنهم منعوا الهواء عن الأسرى المضربين؛ بإغلاق الطاقة الصغيرة والوحيدة التي يتسرب منها الهواء (أبو لبن 2016، ص: 17).
3. في العام (1976م)، وفي اليوم التاسع من الإضراب، أجبر السجّانون الأسرى على تناول الحليب بالزّوندا (أبو لبن 2016، ص: 65).
4. في العام 1976–1977م، وفي سجن عسقلان انهار إضراب الأسرى في اليوم الثامن والعشرين، بدون التوصل إلى إنجازات (أبو لبن 2016، ص: 157).
5. في اليوم الخامس عشر من إضراب نفحة في العام 1980م استشهد المناضل "أنيس دولة" (أبو لبن 2016، ص: 94).
6. في العام 1980م انتهى إضراب أسرى سجن نفحة الصحراوي بعد اليوم الثالث والثلاثين (أبو لبن 2016، ص: 180).
7. في العام (1984م) حققت الحركة الأسيرة انتصارًا بعد اليوم الثاني عشر من الإضراب "الإيرلندي" عن الطعام (أبو لبن 2016، ص: 81).

وسنحلل، فيما يأتي، ثلاثة كتب لأربعة أسرى فلسطينيين محرَّرين، لكلٍّ من هذه الكتب ثيمته ومكوِّناته السرديَّة الخاصَّة به. وسنرصد كلَّ ما يتعلق بالأسير الشهيد "علي الجعفري"، باعتباره أنموذجًا حيًّا للأسير الممتلئ علمًا ومعرفة وثقافة، وصاحب الرؤيا الفكرية في مقاومة الاحتلال، وهو الأكثر حراكًا بين الأسرى الفلسطينيين خلال الفترة الممتدة بين وقوعه في الأسر سنة 1968م حتى استشهاده سنة 1980م.

مُشْكِلَةُ الدِّراسةِ

باطِّلاعِ الباحِثِ ومتابعاته لكتابات الأسرى، أو أدب السجون، ونتاجاتهم في الأجناس الأدبية المختلفة؛ كالرِّواية، والشعر، والسيرة الذاتيَّة، والسيرة الغيريَّة، وأدب الرسائل والمراسلات، وتوثيق يوميات الأسر... إلخ، وجد أنَّ في ذلك بمجمله حراكًا معرفيًّا مقاومًا للاحتلال بشتى الوسائل والسُّبُل. وهذا ما يمكننا تصنيفه بالمعرفة المقاومة، التي تشكِّل مرتكزًا أساسيًا للتحرُّر الذاتيّ. وتأتي هذه الورقة التي تتبع ثلاثة كتب، في صلب المعرفة المقاومة التي صاغها الأسرى الفلسطينيون من خلال آلامهم وعذاباتهم عبْر السنين، لما تتميز به من صدق الوصف ودقة التوثيق؛ إذْ إنَّها كانت من قلب الحدث كما عايشه الكتّاب أنفسهم.

أهَمِيَّةُ الدِّراسةِ

تَمتازُ هذِهِ الدِّراسةُ، وبِحَسَبِ عِلْمِنا، بأنَّها دراسة توثيقية أصيلة، قامَ الباحِثُ خلالَها بالمُتابعَةِ الحثيثَةِ لما وثّقه عدد من الأسرى من تجارب شخصية عاشوها في سجون الاحتلال، كشهادات حيَّة على ما تعرَّض له الأسرى الفلسطينيون خلال الفترة 1967–1980م من هجمة شرسة قدَّمتْ فيها الحركة الأسيرة عشرات الشهداء.

إشكاليَّة الدِّراسةِ

لقد كثر الحديث عن أدب الأسرى، أو أدب السجون – كما يطلق عليه أحيانًا– وعقدت المحاضرات والندوات والمؤتمرات، ونشرت الدراسات العديدة ذات الصلة. وجاءت هذه الدراسة لتتتبع الأسرى الفلسطينيين بوصفهم نماذج للبطولة والفداء والتضحية بالنفس، كما وردت في عدد من الدراسات التي تُنسَب إلى أدب السجون، حتى أنَّ منهم من قضى نحبه، فأصبحوا رموزًا وطنية ونماذج حيّة للمقاومة والدفاع عن الوطن.

المنهج:

اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي، الذي يعتمد على تحليل النصّ، للوصول إلى المفاهيم والقضايا ذات الصلة بالموضوع قيْد البحث.

تمهيد

الأسير هو كلُّ من يقع بيْن يديْ عدوّه، في المعارك وغيرها من أشكال الصراع بين بني البشر. وورد في القاموس، بأنَّ الأسير: مَنْ أُخِذَ في الحرب وقُبِضَ عليه. هناك عديد من القصص والحكايات التي وصلتنا حول الأسرى، عبر العصور، تتحدث عن كتاباتهم، وهم يتغنون بأمجادهم، أو يناجون الله سبحانه بالفرج ونيْل الحرية، ومنهم من ناشد سجّانه الإفراج عنه (العصا، 2022).

في دراسة للروائي الأسير المحرر رأفت حمدونة الباحث في شؤون الأسرى، صادرة عن مركز الأسرى للدراسات، يستخدم مصطلح "أدب السجون"؛ كل ما كتبه الأسرى عن السجن وغيره داخل الاعتقال، وليس خارجه، بشرط أن يكون من أجناس الأدب كالرواية والقصة والشعر والنثر والخاطرة والمسرحية والرسالة، ويفرّق الباحث حمدونة بين "أدب السجون" المستوفي للشروط الأدبية، وبين "أدبيات وإنتاجات الأسرى الأخرى" التي كتبوها داخل الاعتقال، كالدراسات السياسية، والأبحاث التاريخية والأمنية والفكرية، والكتب في مجالات متنوعة، والترجمات من الصحف الإسرائيلية وغير ذلك من المجالات (حمدونة، 2016). أما وزير الأسرى عيسى قراقع فيستخدم مصطلح "أدب الأسرى"؛ أي كتابات الأسرى التي كان منها الرواية والشعر والخواطر والقصص القصيرة والحكايات والمذكّرات والسرديات والمسرحيات والأبحاث والدراسات الأكاديميّة، والتي يرى قراقع أننا "نشهد في الآونة الأخيرة ثورة ثقافيّة حقيقيّة فيما يخصُّ هذا الأدب" (حج محمد، 222).

بالاستناد إلى ما ذُكر أعلاه، يرى الباحث أنَّ الأدب قيْد النقاش هو "أدب الأسرى"، ويرى بأنه من نوع الأدب الملتزم؛ إذ كان كلّ كاتب/ة في أدب الأسرى، صاحب رسالة واضحة، وهناك هدف قد سعى لتحقيقه. وعلى هذا الأساس سنناقش الأعمال الأدبية قيْد الدراسة لاستخلاص تلك الرسائل، وما فيها من توثيق لمرحلة مهمة من تاريخ الشعب الفلسطينيّ.

أولًا– كتاب "نصب تذكاري":

أ) **المؤلفان**، هما الثنائي: المناضل حافظ أبو عباية ومحمد البيروتي، وهما أسيران تحررا عام 1985م في صفقة تبادل الأسرى مع فصائل منظمة التحرير: كان المرحوم حافظ أبو عباية قد اعتُقِل في أثناء تنفيذ مهمة قتالية في جبال الضفة الغربية سنة 1967م، فصدر ضده حكم بالمؤبد. تميَّز أبو عباية بذاكرته الخارقة؛ إذْ كان يحفظ أسماء مُنتسبي كتيبته وتواريخ ميلادهم

جميعهم، وأين ولدوا والتفاصيل المتعلقة بهم كافة. وفي السجن، برزت قدرته الهائلة على حفظ الأسماء والتفاصيل، مما سهل على كليهما وضع كتابهما هذا "نصب تذكاري".

وأما البيروتي فقد اعتقل من قبل القوات الإسرائيلية في قرية التياسير قرب طوباس سنة 1974م، فحكم عليه بالسجن المؤبد، وتركز اهتمامه داخل السجن على الجوانب الثقافية.

ب) **الكتاب:** يتألف هذا الكتاب، وهو من إصدارات وزارة شؤون الأسرى والمحررين لعام (2013م)، من (216) صفحة من القطع المتوسط، تتوزع على (48) عنوانا، يحمل غلافه الأول مشهدًا (طبيعيًّا) لزيتونة فلسطينية؛ يربض عند جذورها، الممتدة حتى فوق الأرض، نصب تذكاري لفلسطين بشهدائها، وأسراها، وجرحاها. وأمام هذا النصب ينتصب "حنظلة" ناجي العلي؛ وهو الكاريكاتير الصبيّ ابن العاشرة من عمره الذي أدار ظهره للمرجفين والانتهازيين، وعقد يديه خلف ظهره منذ العام 1973م؛ واتجه نحو الأمل وإشراقة الشمس التي تضيء الزمان والمكان.

- **ثيمة الكتاب:** يوثق الكتاب لمرحلة عاشها الأسيران وعايشاها؛ مسرحها السجن بتفاصيله المؤلمة، وأبطالها الأسرى الفلسطينيون، وأما إسنادها الزمنيّ؛ فهو عام 1967م.. مرحلة استشهد العديد من أبطالها؛ فجاء كتابهما بعنوان: "نصب تذكاري"؛ ليحمل على جدران صفحاته توثيقاً لسيرة ومسيرة مهمة من مراحل نضال الشعب الفلسطيني.
- أبرز قضايا الأسرى التي يوثقها الكتاب:

1. تتجلى في السجن قصص الحب والحرب: فلم يكن الأَسْر مانعاً لاستمرار الحياة، ولم يكن السجن هو حدّ القطيعة بيْن الفلسطينيين وحياتهم الطبيعية، بل كانت عيونهم ترنو، دائماً وأبداً، نحو الحرية والتحرر لإنشاء أسرٍ من نطفهم تجعل جمار الثورة متقدة إلى أن يعود الحق إلى نصابه؛ بأن تعود فلسطين إلى أهلها.
2. بطولات وصمود: إذْ يتّضح من كتاب "نصب تذكاري" أنَّ الأسرى لم يكونوا أناساً عاديين؛ بل هم أبطالٌ يرفضون الظلم والضيم، ويقاومون، بإرادة صلبة، سلب الأرض ونهب الحضارة والتاريخ والجغرافيا التي ورثوها عن الآباء والأجداد، فقد ردوا على النكسة بأن بدأت عملياتهم في عام 1967م. وتوزعت تلك البطولات تحت عناوين متعددة، منها:

- المجموعات المقاتلة التي كانت تتوجه إلى الأرض المحتلة، على شكل دوريات، ضمن مهمتين أساسيتين: الأولى؛ مهاجمة قوات الاحتلال حديثة العهد بالأراضي المحتلة، والثانية؛ تزويد الداخل بالسلاح والمعدات عبر قوافل الإمداد.
- تحدي الزنزانة ومواجهة السجان: فقد تميز الأسرى الفلسطينيون بقدرات فائقة في تحدي ظلمة الزنزانة وتحدي جبروت السجان، وتميزت المرحلة التي يغطيها الكتاب بأنها كانت مرحلة أسست للمراحل اللاحقة التي وقف فيها الأسرى ببطولة، وتفانٍ، في وجه قوانين السجن ووحشيته، ومن تلك المشاهد:

- الإضرابات: التي شكلت (مدرسة) متفردة في مواجهة جبروت السجون؛ إذ تمكّن الأسرى، بصدورهم العارية، وبأمعائهم الخاوية من إجبار السجّان على الرضوخ لمطالبهم المشروعة.
- الصِّدام المباشر مع السّجانين؛ الذي يعني "هز" هالة السلطة الاحتلالية، وكسر حاجز الخوف من ممارساته.

3. المرأة الفلسطينية؛ محرك المعركة ووقودها في آنٍ: إذ يستهل المؤلفان كتابهما بقصة "رقية عبد الرحيم محمود"؛ التي تبرعت من دمها لـِ" خضر حسن قطامي"، لتكون حافزاً له بالشفاء السريع والعودة السريعة إلى ساحات القتال.
4. الأسرى يعملون بتفانٍ وبروح المسؤولية: لم يصمد الأسرى الفلسطينيون في سجون الاحتلال إلا لما تمتعوا به من قدرة عالية على رباطة الجأش، وحسن السلوك والانضباط، رغم بعض الشوائب، هنا وهناك.
5. سلاح العلم والثقافة والمعرفة حاضر في المعركة: تنبه المحتلون، منذ اللحظة الأولى، إلى خطورة الثقافة والعلم الذي يتمتع به الفلسطينيون؛ فدأبوا على عملية تجهيل الأسرى، وعزلهم عن محيطهم وعن شعبهم بل وعن العالم أيضاً، بهدف "إعدامهم" ثقافياً وبهدف إطفاء لهيب الثورة في نفوسهم؛ بحرمانهم التام من القلم والورقة لعدة سنوات امتدت حتى أوائل السبعينيات من القرن الماضي.
6. فضائح الاحتلال وفظائعه بحقِّ الأسرى: يتبيَّن من هذا الكتاب أنَّ الصراع الذي كان قائماً بين الأسرى وسجّانيهم كان صراع وجودٍ وصراع هُويَّة. وأنَّ الطرفين كليْهما كان يرى في "الآخَر" نقيضه الطبيعيّ.
7. إبداعات الأسرى ورؤاهم المتفائلة برغم القيْد: لقد أشار كتاب "نصب تذكاري" إلى مجموعة من الظواهر التي تؤكد صدق الانتماء، والتفاني في الدفاع عن رفاق الدرب؛ دون الالتفات إلى مغنم أو مكتسب.

علي الجعفري في كتاب "نصب تذكاري" (أبو عباية، 2013، ص: 21–26، 112، 116):

- هو "علي شحادة الجعفري"، من مواليد قرية رافات عام 1946م، هُجّرت أسرته إبّان النكبة عام 1948م إلى مخيَّم عقبة جبر في أريحا (الرجوب (2015)، ص: 131).
- كان في عام 1965م من أوائل المنتسبين إلى كتيبة الصاعقة الفلسطينية التي شكّلتْ نواة جيش التحرير الفلسطينيّ في العراق. وقد تركت هذه الكتيبة أثرًا حاسمًا على مسيرة الثورة الفلسطينية والكفاح المسلّح في الفترة التي امتدت من عام 1967م حتى بداية السبعينيّات.
- سجّل علي حضورًا متميزا في الكتيبة من حيث القدرة العسكرية والجلَد والصرامة التي تتماشى مع حياة جنود الصاعقة المُعَدّين للقتال لتحرير فلسطين. وأظهر قوة وعزيمة وقدرة على التحمل، ورغبة مُلحّة في نيْل المعارف العسكرية والتدريب العالي.
- غادرت الكتيبة العراق متوجهة إلى فلسطين إثر انطلاق معارك النكسة عام 1967م، تحت إمرة اللواء العراقي المدرع الثامن، للمشاركة في القتال، وما إن وصلت حدود الوطن، وعليّ أحد أفرادها، كانت إسرائيل قد احتلت ما تبقى من فلسطين.
- تركت النكسة أثرها المباشر على عليّ الذي أدرك أنَّ مكانه ليس كتيبة الصاعقة في جيش التحرير، وإنَّما قواعد الثورة الوليدة التي شرعت على الفور تقاتل الاحتلال، فالتحق بحركة فتح، ليُستقبل بترحاب بالغ نظرًا لتدريبه العسكريّ ومعرفته العالية بالأسلحة على مختلف أنواعها، والتكتيكات الحربية الملائمة لخوض حرب طويلة الأمد، وهي الحرب التي نادت بها فتح وسارعت إلى انتهاج طريقها.
- اندمج عليّ على الفور في العمليات التي تصاعدت بعيْد النكسة، فأسهم في عدد من الدوريات القتالية، ودوريات الاستطلاع، ودوريات نقل السلاح وتخزينه في الوطن المحتل.
- مباشرة بُعيْد معركة الكرامة (1968/03/21م) انطلق عليّ الجعفري ضمن مجموعة ضمت (8) مقاتلين، متجهة إلى منطقة رام الله؛ كقاعدة داخلية لشنّ هجمات عسكرية ضدَّ العدو. إلا أنَّ الاحتلال اكتشف الخليَّة في وقت مبكر، فتتبع آثارها ليحاصرها في وادي القلط غرب أريحا؛ وهو وادٍ وعر وضيق وممتلئ بينابيع الماء.
- جرت محاصرة المجموعة داخل الوادي من قبل قوة المطاردة، وقوات تعزيز إضافية؛ بسبب وعورة المنطقة وعجز المدرعات والآليات عن اقتحامه، كما فشلت طائرات الهليكوبتر في استخدام أسلحتها؛ بسبب التداخل بين المقاتلين الفلسطينيين وجنود الاحتلال. أي أنَّ موقع الاشتباك، كان حصيناً، ويسمح بإدارة اشتباك ناجح، لكنْ إلى حين؛ فالذخيرة المحدودة سوف تنفد آجلًا أم عاجلًا، والموت أو الوقوع في الأسر محتوم.
- جرى اشتباك عنيف استمرَّ طيلة يوم كامل، استشهد فيه اثنان من أعضاء المجموعة، هما: قائد المجموعة نادر تايه، وعبد الناصر من القدس، وأوقع المقاتلون الفلسطينيون خسائر كبيرة في صفوف العدو، على رأسهم جنرال (سي عوفر) رجل المهمات الصعبة في قوات جيش الاحتلال والحائز على النياشين والميداليات.
- نظرًا لجرأة المقاتلين الفلسطينيين، والخسارة الفادحة لجيش الاحتلال، حضر موشيه دايان/ وزير دفاع الاحتلال، واختار عليّ الجعفري ليجري معه مقابلة شخصية، حيث تمَّ نقله في طائرة هليكوبتر إلى معسكر صرفند، وتحاور معه على مدى (3) ساعات. ويقول عليّ الجعفري عن هذه المقابلة بأنه:

"حاور دايان حول طبيعة المقاومة، ومعنويات المقاتلين الفلسطينيين، والروافد التي تعزز هذه المعنويات. وقدم عليّ عرضًا شاملًا عن الثورة التي تستمدّ قوّتها ومنعتها من إيمانها بحقّ الشعب الفلسطيني باسترداد وطنه والعودة إليه، مؤكدًا أن الشعب الفلسطيني في الشتات على استعداد للانضمام إلى الثورة، إذا توفرت إمكانية استيعابهم في قواعدها. ورفض عليّ عرض دايان عليه أن يحمل رسالة إلى ياسر عرفات. فقال له دايان: رفضك لحمل الرسالة سوف يبقيك في السجن فترة طويلة، وقد أزورك بعد (10) سنوات، فقال له الجعفريّ: ذلك أفضل من أن يشار إليّ كمن ساوم على المجموعة أو سلّمها أو ضعف في مرحلة ما"

- انتهى أمر الجعفريّ معتقلًا في سجن عسقلان، إلى جانب زملائه من أفراد الدورية الذين وقعوا في الأسر؛ فخاض عليّ الخطوات التمردية كافة ضدَّ إدارة السجن وطاقم السّجّانين أسوة بسائر الأسرى، لم يتراجع أو يتردد أبدًا في أنْ يكون من رجالات الصفِّ الأول في هذا المضمار. فكانت إضرابات سجن عسقلان المتتالية، وعلي الجعفري أحد أبطالها، قد حققت إنجازات مهمة على صعيد وقف القمع الاحتلالي للأسرى وتحسين أحوال السجون؛ فعلى سبيل المثال، كان هناك إضراب

انطلق يوم 1970/07/05م، تحت اسم "كسر حاجز الخوف"، الذي ذهب ضحيته الأسير "عبد القادر أبو الفحم" (أبو عباية والبيروتي 2013، ص: 113)

- سنة 1980م نُقل علي الجعفري إلى سجن نفحة الصحراوي، الذي تمَّ تجهيزه ليحلَّ محلّ سجن عسقلان في القمع والتضييق على الأسرى، وكان يضمّ نخبة من الأسرى في غرفه الضيقة وساحاته الصغيرة، وقضبان الحديد والأسلاك الشائكة التي كانت بكثافة جعلتها تحجب أشعة الشمس الصحراوية عن الغرف والساحات، مما دفع بالأسرى إعلان الإضراب عن الطعام فور دخول هذا السجن، وشاركتهم في ذلك سجون الوطن المحتل كافة. انتهى هذا الإضراب باستشهاد القادة: علي الجعفري، وراسم حلاوة، وإسحاق مراغة... فقامت سلطات الاحتلال بتسليم جثمانيّ راسم حلاوة وإسحاق مراغة.
- بدأت معركة عليّ الثالثة بعد وفاته مباشرة، خاضتها بالنيابة عنه أخته فاطمة التي لجأت إلى جميع الوسائل، بما فيها المحاكم الإسرائيلية، لكيْ تتسلم جثمانه وتخرجه من مقبرة الأرقام – حيْث أودعته سلطات الاحتلال فيها– وبعد (14) عامًا من المطالبات المتواصلة تسلمت فاطمة جثمان عليّ وتم دفنه في جنازة مهيبة في مقبرة الشهداء في مخيم الدهيشة، بما يستحقّه من تكريم.
- ترك الجعفري أثره الفوريّ على السجن، ثقافةً ونشاطاً وتنظيماً، وكانت أنماطه العقلية قد دفعته لانتهاج الفكر اليساري قاعدة لرؤيته الفلسفية والنضالية. فكان مصدرًا للعلم والمعرفة والثقافة.

يعدّ هذا الكتاب وثيقة مهمة تشير إلى أنَّ أسرى تلك الحقبة الزمنية قد أسَّسوا لمرحلة مهمة من حياة الشعب الفلسطيني، أكدت وجوده على أرضه "فلسطين"، وتضحيته دفاعاً عنها. كما أنَّ هناك ما يُلفت النظر من أنَّ حوالي خُمس الوفيات للأسرى المذكورين في هذا الكتاب قد قضوا بمرض السرطان؛ الأمر الذي يتطلب إعادة مراجعة ملفات الأسرى الفلسطينيين لحصر أسباب الوفاة وتحليلها من قبل المتخصِّصين. وعلى المستوى الوطني، أرى بضرورة جعل هذا الكتاب وغيره من الكتب المشابهة، ذات الصلة بتجارب أسرانا وسِيَرِهِم، على رفوف مكتبات مدارسنا وجامعاتنا، بل في كلِّ بيت فلسطيني وعربي.

ثانيًا– كتاب "نفحة يتحدث: 35 عامًا على معركة الأمعاء الخاوية":

أ) **المؤلف:** جبريل الرجوب؛ قائد أمني وسياسي ورياضي. صارع الاحتلال منذ نعومة أظفاره، ففتح عينيه طفلًا في سجون الاحتلال وأقبيته المظلمة، وما فيها من سطوة وظلم بحق الإنسان الفلسطيني. إلى أنْ تفرَّغ للشأن الرياضي وما يصاحبه من مسؤوليات وتحديات، عبر الصراع المرير القائم على هذه الأرض بسبب المخطط الاحتلالي الهادف، إلى جعل الرياضة الفلسطينية مجرد جزء من الحديقة الخلفية للدولة العبرية، عبر تهميشها أو إنكارها.

ب) **الكتاب:**

- جاء بعنوان: "نفحة يتحدث– 35 عامًا على معركة الأمعاء الخاوية: صفحات من نضال الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال الإسرائيلي"، صدر عن دار المناهج للنشر والتوزيع في عمّان/ الأردن، من (132) صفحة من القطع الكبير؛ تتوزع عليها أربعة فصول، عناوينها:

1. الهدف هو التصفية ببطء.
2. نعم للجوع، لا للركوع.
3. إضراب الشهيديْن علي وراسم.
4. رَدًّا على تقرير لجنة طمْس الحقائق.

- ثيمة الكتاب: وفق عناوين الفصول أعلاه، نجد أنَّ لكلِّ فصل من هذا الكتاب عنوانه ودلالاته التي تُشكِّل، مجتمعة، قصَّةَ صراع الإرادة الذي خاضه الشعب الفلسطيني مع الدولة العبرية خلال أول خمسة عشر عامًا بعد النكسة، ببُعديْه: النظريّ، وما يصحبه من مفاهيم ونظريات وحقائق. والعمليّ، وما يستخدمه الاحتلال من أدوات للقمع الأكثر شراسة. ووصل الرجوب الذروة عندما استحضر واحدة من معارك الأمعاء الخاوية، التي خاضها الأسرى الفلسطينيون مع سلطات الاحتلال، في صيف عام 1980م في سجن نفحة الصحرواي .
- أبرز قضايا الأسرى التي يوثقها الكتاب:

1. هدف الاحتلال الإسرائيلي هو تصفية الأسرى الفلسطينيين ببطء": فقد قدَّم الرجوب لكتابه بتوطئة نظرية ومفاهيمية تصف مقدمات الإضراب، ثم الإضراب نفسه وصولًا إلى النتائج النهائية والاستنتاجات التي توصل إليها الكاتب. كما توقف عند

ملامح الصراع " الفلسطيني– الصهيوني"، ذات الصلة بفترة الإضراب (عام 1980م)، الذي تأخذ فيه السجون دورًا بالغ الأهمية؛ باعتبارها وسيلة تصفية للمناضلين الفلسطينيين.

2. الظروف الاعتقالية السيئة للغاية، والمتمثلة في الآتي:

- السكن: سيِّء الإنارة بلا تهوية، وضيِّق جدًا( ).
- الإقامة والنوْم: ويقصد بها الأثاث والأفرشة والأغطية، التي تكاد تكون معدومة، ومن النوع غير المريح والضارّ بالصحة.
- الطعام: وهو من النوع والكمية بما يبقي على الأسير حيًا من الناحية البيولوجية، وذلك بإعطائه الحدَّ الأدنى من السُّعرات الحرارية اللازمة لاستمرار عمل أجهزة الجسم، ولا شيء غير ذلك.
- ضلالات وتضليلات الرعاية الطبية: ففي حالة مرض الأسير، لم يتعدّ دوْر سلطة السجن حصر العلاج بدواء غير فعّال، أو بعملية جراحية سريعة لا تشفي مرضًا. الطب جزء من سلطة القمع؛ فقانون الدولة العبرية يُخضع الطبيب في عمله لمدير السجن (الرجوب (2015)، ص: 21– 48).

3. وأمّا نتيجة هذا كلِّه، فهي: استشهاد عشرات الأسرى، التي كان آخرها، في حينه (عام 1980م)، استشهاد تسعة أسرى خلال السنتين الأخيرتين. وأما ما قامت به سلطات الاحتلال من عمليات جراحية، فجاءت وسيلة للتحكم في عدد الضحايا، وللتخفيف من نقمة الرأي العام الدولي.

4. رفع الأسرى، منذ عام 1967م، شعار "نعم للجوع ولا للركوع"، وقد مرَّ نضالهم، خلال الفترة 1967–1980م، في ثلاث مراحل، هي:

- مرحلة رد الفعل: وهي مرحلة دفاعية خلال السنوات الأولى للاحتلال، التي وجد فيها الفلسطينيّ أنَّه لم يبق له سوى كرامته. وفي هذه المرحلة اقتحم الأسرى حاجز الخوف، من خلال إضراب سجن عسقلان في العام 1970م، الذي ارتقى فيه الشهيد عبد القادر أبو الفحم؛ أول شهداء الإضراب.
- مرحلة النضال من أجل إدخال تحسينات جزئية (1971–1976م): وهي المرحلة التي شهدت، في معظمها، حالة من التمرد على قرارات السجّانين وقوانينهم.
- مرحلة الفعل: وهي المرحلة التي سعى خلالها الأسرى إلى تحقيق المساواة في ظروف اعتقالهم مع ما يحصل للجنائيين اليهود. وهنا، أصبح الإضراب الوسيلة النضالية الأكثر حدَّة ومضاءً. وقد شكَّلتْ هذه المرحلة نقطة انعطاف مهمة في تاريخ نضالات الأسرى الفلسطينيين، عندما أخذت سلطات الاحتلال تبتدع الآليات والمنهجيات والأساليب القمعية (الرجوب (2015)، ص: 53–75).

5. أطلق على إضراب تموز–1980م "إضراب الشهيدين علي وراسم". ومن أبرز محطات هذا الإضراب:

- معركة التغذية الإجبارية؛ ففي اليوم الخامس للإضراب؛ أجرى الطبيب المسؤول فحوصات أولية للأسرى، فقرر تغذيتهم إجباريًا.
- وفي اليوم الثامن للإضراب؛ تمَّ تجميع (26) أسيرًا من المضربين عن الطعام، لنقلهم إلى سجن الرملة. وبشكل متزامن ومتطابق، تمَّ في اللحظة نفسها سحب الأسرى الباقين في نفحة وزملائهم المُرَحَّلين إلى الرملة، والعمل على إقحام الأنبوب البلاستيكي في أنف الأسير، بطريقة مؤلمة وبوحشية، لينتهي الأمر بدفق (3) لترات من ذلك السائل الكريه في معدة الأسير. فنجم عن ذلك استشهاد الأسيرين علي الجعفري وراسم حلاوة، كما سيأتي لاحقًا.
- إعادة الأسرى إلى نفحة وإنهاء الإضراب: إذ استمرَّ الإضراب بعد استشهاد قائديْه: علي الجعفري وراسم حلاوة، فاحتفى زملاؤهما بتسمية الإضراب باسميْهما، واستمروا يكابدون العدو بآلته العسكريَّة والطبيَّة والإعلاميَّة، حتى 1980/08/14م؛ أيْ بعد مرور (33) يومًا على الإضراب، انتهز أحد وزراء الدولة العبرية مناسبة عيد الفطر، فتعهد بإجراء دراسة جديَّة لمطالب الأسرى، ودعا إلى وقف الإضراب. فتوقف الإضراب بالفعل في 1980/08/15م، وبعد ذلك بيومين حضر مدير السجون واجتمع مع أبطال الإضراب في سجن نفحة ووعد بتلبية بعض المطالب ودراسة البعض الآخر (الرجوب (2015)، ص: 96–97).

6. تقرير اللجنة الخاصة التي تمَّ تشكيلها للتحقيق في شأن الإضراب وحيثياته ونتائجه، كانت، من الناحية العملية، لجنة "طمس للحقائق"؛ إذْ إنَّها سعتْ إلى طمْس حقيقتيْن رئيستيْن تتعلقان بالاحتلال، هما:

- الحقيقة الأولى: لجوء سلطات السجن إلى استعمال العنف الجسديّ لكسْر إرادة المُضربين عن الطعام، من أجل إيقاف إضرابهم (بالقوة).
- وأما الحقيقة الثانية؛ فهي الأوضاع السيئة التي دفعت أسرى نفحة للإضراب. كما أخفى العديد من المعلومات والبيانات والبينات، مثل: كسر ذراع الأسير خميس السلايمة، ثم كسر ضرسه من قبل الممرِّض الذي لكمه في أثناء تجبيره، وعدم الإشارة إلى إدخال (4) مضربين عن الطعام إلى مستشفى سجن الرملة (الرجوب، 2015، ص: 104).

7. ومضات من "نفحة يتحدث":

هذا الكراس/ الكتاب نتاج عصارة تفكير عشرات المناضلين الفلسطينيين الذين ارتأوا فيه وثيقةً حيَّةً ودائمةً للأجيال. وُجِدتْ بين ثناياه الكثير من المعرفة والدِّلالات الفكريَّة والتأريخيَّة المرتكزة على المحاور الآتية:

أولًا: الإسناد العلمي والمفاهيمي.

ثانيًا: ربط الأحداث التي تمَّتْ بين السجون المختلفة.

ثالثًا: كشف عن توظيف الاحتلال الطبّ والهندسة والثقافة لإيذاء الأسرى: إذْ إنَّ علماء الاحتلال وظفوا معرفتهم العلمية في خدمة السجّان الذي يسعى إلى سلب إرادة الأسير وإفقاده بعدَه الإنسانيّ. وهنا؛ نجد أنفسنا أمام السؤال الاستراتيجي الآتي: كيف أدَّى هؤلاء قَسَمَ تخرُّجِهِمْ من الجامعات، القَسَمُ الذي يقوم جوهره على خدمة الإنسانيَّة جمْعاء؟! أليس في ذلك خروج عن العرف الإنساني، وخروج عن الشرعيَّة الدوليَّة؟! وهل يبقى للأكاديميا الاحتلالية مصداقيَّة بعد هذا كلِّه؟!

رابعًا: شهادة أمام المنظمات الحقوقية: ما ورد في هذا الكتاب هو شهادة حقيقية على ما اقْتُرِف بحقِّ أولئك الأسرى منْ ممارسات لا إنسانية، أجمَعَ عليْها ثلاثة وسبعون فلسطينيًا، من مختلف المشارب السياسية والفكرية، وهم مسؤولون عن كل حرف فيها. فهل يبقى بعد ذلك من يبحث عن دليل لإدانة الاحتلال بأوجهه المختلفة: الشُّرَطيَّة والعسكريَّة والاستخباريَّة والطبِّيَّة والهندسيَّة... إلخ!

علي الجعفري في كتاب "نفحة يتحدَّث":

كان علي الجعفري واحداً من قادة الإضراب قيْد النقاش سنة 1980م، لا سيَّما أنَّه قادمٌ منْ تجارب إضرابات متكررة، كما ورد في "نصب تذكاري"، ووفق مسلسل الإضرابات المذكور في "نفحة تتحدث" في السبعينيات وصولًا إلى يوم استشهاده في 1980/7/22م.

كان الشهيدان علي الجعفري وراسم حلاوة من ضمن الـ (26) أسيرًا المضربين عن الطعام الذين تمَّ نقلهم من سجن نفحة إلى سجن معتسار في الرملة الساعة 6:30 مساء ذلك اليوم القائظ 1980/7/21م، فوصلا – مع زملائهما– حوالي الساعة 11 ليلًا. وفور وصولهما تعرضا للضرب المبرح. أمَّا الشهيد علي الجعفري فتتابع تدهور وضعه الصحي كالآتي:

- أغمي عليه في أثناء جولة الضرب الأولى، وسبب له سقوطه على الأرض مزيدًا من الضرب بالعصي والأرجل.
- تمَّ إدخاله إلى الزنزانة في منتصف الليل، وهو في حالة من الإنهاك الشديد بسبب السفر الطويل في ظروف سيئة، والضرب الذي تعرض له، لا سيَّما أنَّ بِنْيَتَهُ ضعيفة أصلًا.
- في حدود الساعة الثانية صباح 1980/7/22م أُخرِجَ علي الجعفري إلى قاعة الغذاء الإجباري، وهناك واجه عنفاً جسمانياً شديدًا، صاحبه دسّ أنبوب التغذية الإجبارية في الرئة.
- منذ اللحظة التي غادر فيها تلك القاعة (قاعة القتل) سبب ذلك له تقيؤا وسعالاً شديديْن، وصعوبةً في التنفس. وفي الساعة السادسة صباحًا، ازدادت حالة علي سوءًا، وأخذ يتقيَّأ دمًا، وبدأ يطلب المساعدة الطبية بإلحاح.
- في الفترة التي تلت الساعة الثانية عشرة ظهرًا، تدخّل الطاقم الطبي، محاولاً ابتزاز موقف من علي لوقف الإضراب مقابل تقديم الإسعاف له.
- في الساعة الواحدة بعد الظهر، وبطلب من المحامية "ليئا تسيمل" نُقل برفقة الأسير إسحق مراغة الذي كان يصارع الموت، وأجري لهما تصوير أشعة. وبعد نحو ساعة قيل لهما إنه سيتم إدخالهما في مستشفى سجن الرملة.
- تمَّ وضعهما في "معبار" سجن الرملة حتى الساعة (3:30) عصرًا، وهما يصرخان طلبًا للمساعدة، إلى أن انهارت قواهما، فتمَّ نقلهما في سيارة إسعاف إلى داخل مستشفى سجن الرملة، في الساعة الرابعة عصرًا قد أُدخلا متكئيْن على أكتاف السجانين، وهناك سقط علي على الأرض.

- حوالي الساعة (4:30) عصر ذلك اليوم 1980/07/22م، تمَّ نقل علي الجعفري على حمالة إسعاف إلى مستشفى هساف هروفيه، حيث وصل المستشفى بعد أنْ فارق الحياة. وكان معه الأسير إسحق مراغة الذي كان في حالة خطر شديد، إلى قسم العناية المكثفة (الرجوب، 2015، ص: 97–99).
- ويوثّق الأسير المحرر صالح أبو لبن آخر لحظات الشهيد علي الجعفري، كما كانت تُروى في السجون، بقوله: وقد أغمي على المناضل علي الجعفري مرّتين، وظلَّ مصرًّا على إضرابه، إلى أنْ تمّ سكب الحليب في رئتيه، هو والشهيد راسم حلاوة وإسحاق مراغة، وظلوا طوال الليل متروكين في نزف للدم مستمر وحشرجة يصارعون الموت والاختناق إلى أن استشهد عليّ وراسم، وبعد مدة استشهد إسحق (أبو لبن 2016، ص: 61).
- أما الحقيقة الأكثر وضوحًا فيذكرها الرجوب (2015: 92) بقوله: "فقد علمْنا أنَّ المناضل علي الجعفري قد استشهد نتيجة دخول أنبوب سائل التغذية الإجبارية إلى رئته".
- لقد كان لاستشهاد الجعفري بالغ الأثر على سلطات السجن على وجه الخصوص، وعلى الحكومة الإسرائيلية بشكل عام؛ فتمَّ الإفراج عن أحد المضربين الذي أمضى محكوميته وشرع مسؤولو السجن بتوزيع ابتسامات خبيثة، وتبادل كلماتٍ ودٍّ مبتذلة، وقام مسؤول الخدمات الطبية بزيارة السجن (نفحة)، ففحص عددًا من الأسرى، وأمر بفتح كوّة لتحسين شروط التهوية. كما كان هناك مجموعة إجراءات لا يتسع المجال لذكرها (الرجوب (2015)، ص: 92–94).
- واستمرت إجراءات الاحتلال بأنْ قام الوزير الإسرائيلي المتخصِّص، في محاولة منه لامتصاص النقمة المحلية والدولية، بتشكيل لجنة أطلق عليها "لجنة تقصّي الحقائق"، برئاسة شقيق رئيس أركان الجيش (الرجوب (2015)، ص: 93). وهدفت اللجنة تبرئة الاحتلال من دم الشهيديْن الجعفري وحلاوة، تكونت اللحنة من:
- صموئيل آيتان/ رئيس اللجنة؛ مراقب قسم الشرطة بوزارة الداخلية.
- هارون أرجمان؛ مستشار شؤون السجون في قسم الشرطة بوزارة الداخلية.
- الطبيب يسرائيل ليفشتس من مكتب وزارة الصحة للّواء الأوسط، وكان دوْره يتركز في "ابتداع" الادعاءات "السخيفة" لتبرير استشهاد علي الجعفري وراسم حلاوة (الرجوب (2015)، ص: 105).

لقد كانت لجنة طمس الحقائق، ومما يؤكد ذلك أنه جاء في الفقرة (ج) من تقريرها: "تنظر لحادثيْ الوفاة كنتيجة لحادث مؤسف نجم عن الخطر الذي فرضه المضربون على أنفسهم بوعي وإدراك، من جهة، ونجم، من جهة أخرى، عن خلل في العلاج يحدث أمثاله من وقت إلى آخر في المستشفيات" (الرجوب (2015)، ص: 106)

تخليدًا لذكرى الشهيديْن علي الجعفري وراسم حلاوة، تمَّ تسمية ذلك الإضراب بـــ "إضراب الشهيديْن علي الجعفري وراسم حلاوة". كما أصبح يوم استشهاد علي الجعفري وراسم حلاوة يومًا تاريخيًا في حياة الأسرى؛ فقد أصبح يوم 7/22 من كلِّ عام مناسبة يضرب فيها الأسرى عن الطعام، ويبلِّغون سلطات السجن بذلك دون خوف (الرجوب (2015)، ص: 52).

عندما تمعّنْتُ في هذا الكتاب "نفحة يتحدث" وجدتُ أنَّ هناك حالة من التكاملية والتعاضد المعلوماتي، مما يجعل الأعمال الكاملة للأسرى ضرورة وطنية، تسدُّ فراغًا كبيرًا تعاني منه الرواية الفلسطينية في مواجهة رواية الحركة الصهيونية القائمة على "المحو الكامل للفلسطينيين والإنشاء المزيف للكيان الصهيوني"، التي تعتمدها منذ أكثر من قرن ونصف القرن من الزمن.

وإنَّني أرى بأنَّ هناك حاجة ملحّة لجعل هذا الكتاب وغيره من الكتب التي تتحدث عن بطولات شعبنا، الفردية والجمعية، بين أيدي أبنائنا الطلبة في مدارسهم وفي بيوتهم؛ لكي تشتعل فيهم روح الاحترام والتقدير والإعجاب اتجاه آبائهم وأجدادهم، الذين لولا تضحياتهم ومواقفهم البطولية، لما كنا على ما نحن فيه من مهابة واحترام أمام شعوب هذا الكوكب.

ثالثًا– كتاب "الدهيشي":

أ) **المؤلف:** عيسى قراقع؛ فتح عينيّه في المخيم، وتتلمذ في أزقته وطرقاته ومنعرجاته في حياة لجوء خشنة، فأبدع في مجالات عدّة ذات صلة بالسياسة؛ فكان أسيرًا سياسيًّا، فرئيسًا لنادي الأسير الفلسطيني، فعضوًا في المجلس التشريعي الفلسطيني فوزيرًا لشؤون الأسرى.. وذا صلة بالفكر والأدب والنقد والثقافة؛ فصال وجال بقلمه، وقاوم الاحتلال بالكلمة المقاتلة، وها هي كتبُه تصطفّ على رفوف المكتبة الفلسطينية، توثق للوطن السليب، وتدافع عن حقوق الشعب، وستبقى ذخرًا وذخيرة للأجيال القادمة.

ب) الكتاب:

- يتألف هذا الكتاب، وهو من إصدارات وزارة الثقافة الفلسطينية لعام (2021م) من (53) محطة سردية، تتوزع على (279) صفحة من القطع المتوسط. يبدأ بغلاف يحل لوحة للفنان يوسف خطاب؛ ذات سيمياء تدلّ على مجتمع محاصر من كل الاتجاهات، تنهال عليه القذائف من الأعلى، والشبك الشوكيّ الحادّ منتشر في كل مكان، والموت – ممثلًا بشخص تمَّ إعدامه– والبؤس، والخوف والترقب هو السائد. كما أنّ اللوحة لا تخلو من امرأة منتصبة القامة تواجه كلَّ ذلك البؤس بقوّة واقتدار.
- ثيمة الكتاب: تشكل المحطات السردية في هذا الكتاب، وهي جميعها بقلم الكاتب عيسى قراقع، وقد جاءت بما يشبه عصير البرتقال الطبيعي الخالي من الصبغات؛ فهي ترجمة مباشرة ودقيقة لمشاهدات الكاتب ومشاعره، وأحاسيسه، ورؤاه... لا سيَّما وأنه تبوّأ أعلى المناصب في الدولة والمجتمع الفلسطينيين؛ وزيرًا وعضوًا في المجلس التشريعي الفلسطيني وغير ذلك من المهام التنظيمية والمؤسَّساتية؛ ما يعني المزيد من الصدق والدقة في تشخيص الواقع، واستشراف المستقبل، بمديْه: القريب والبعيد.
- أبرز القضايا التي يوثقها الكتاب:

1. إعادة تعريف المخيَّم: فالمخيم الذي أرادت له قوى البغي والعدوان، التي أنشأت الدولة العبرية على أرض فلسطين، أنْ يكون مقبرة للشعب الفلسطيني، لاعتقادهم أنه أصبح مشرّدًا بائسًا فاقدًا للبوصلة. إلا أنَّ ظنون هؤلاء الأشرار جميعها قد خابت وخسئت؛ فكان المخيم منطلقًا وأساسًا للفكر والعلم والثقافة، ومتكأً أساسيا لثورة وضعت الشعب الفلسطينيَّ على الخريطة الجيوسياسية على مستوى العالم.
2. وعلى هذه الأسُس جاءت حكايات كتاب "الدهيشي"، كما يراها الناقد الدهيشيّ د. خليل عيسى، لتُمَجْهِر المعاناة بصبغةٍ أدبيةٍ ضافيةٍ: تَنسُجُ خيوطَها من شوارعِ المخيَّمِ وأزقتِه وحاراتِه، وتَبني حبكَتَها من العظامِ المكسورةِ والعُكَّازات، تُحكِمُ استعاراتها وتشبيهاتها من وجع المقهورين والمعذَّبين والمصابين والمفرّزين والمرقّمين في القبور (عيسى 2021)...

فالدهيشة هو بلاطة والأمعري والجلزون والعرّوب قلنديا وشعفاط والشاطئ والبريج ودير البلح وجباليا والمغازي والبَقعة والوحدات، وكلّ المخيَّمات في الأرض والشتات، وهي ذاتُ الزقاق، وذاتُ التضاريس، وذاتُ الهمومِ والشجونِ، وذاتُ القضايا والمعاناةِ والعذاباتِ، وذاتُ رائحةِ الميرميةِ والزعترِ وشَجرِ الكينا. والمخيَّم: أسلاكٌ شائكةٌ، وأبراجُ مراقبةٍ، وكاميراتُ متابعةٍ، وحاجزٌ حديديٌّ يسدُّ رئةَ تنفسِ المخيَّمِ، وجنودٌ يُحوِّطون السماءَ والأرضَ، ويقنُصونَ كلَّ متحركٍ فيه. مسكونٌ بهمومِ الأسرى، وذوي الإعاقاتِ، وعوائلِ الشهداءِ والاستشهاديين والمفرّزين في ثلاجات الموت والمأسُورين في مقابر الأرقام، والغارقِين في البحرِ... وتمتَّع الكتاب بقدرة هائلة على التأريخِ وتوثيق أسماءِ الأمكنةِ والشخوصِ والأعمالِ الأدبيةِ ومؤلفيها، والمقولاتِ والعباراتِ والأشعارِ وقائليها، والمنظماتِ الدوليةِ، والهيئاتِ الأمميةِ، والحركاتِ الوطنيةِ، والمتضامنين، وضباطِ المخابرات (عيسى 2021).

الأسرى وعلي الجعفري في كتاب "الدهيشيّ":

بقراءة متمعنة لتلك السرديات، لا يمكنك أنْ تفلت في أيٍّ منها من عبق الشهادة وذكريات الشهداء الأبطال، التي تنتشر بين السطور والكلمات، ووجع السجن، وكفاح الأسرى وبطولاتهم وصمودهم وتفانيهم:

- ففي سردية "أنا في عاصفة الحجارة"، يعرف المخيَّم بأنَّه عاصمة الحجارة، ويخاطب الأسير "مروان البرغوثي"، في (8) رسائل، ومما قاله: (...) فهل حولك السجن إلى متعدد في داخلك، ومتجدد في خارجك أتدرَّب قلبُك على النبْض والخيال؟ هل أخرجوك من زنزانة عزل سجن جلمة بعد (42) يومًا من الجوع والتحدي؟ ويختم قراقع رسائله للأسير البرغوثي، بالقول: إنَّ الشعب الفلسطينيّ الذي فيه رجال يقاومون السجن والسجَّان بالإرادات الشامخة، شعب يستحق الحياة والحرية (قراقع 2021، ص: 103–107).
- وفي سردية "أربعون يوما على الرصيف" يخاطب قراقع الكاتب والأسير المحرَّر صالح أبو لبن؛ صاحب الكتاب التوثيقي الذي يحمل هذا العنوان؛ يوثق لأربعين يومًا أمضاها أبناء مخيم الدهيشة في خيمة على الرصيف تضامنًا مع خمسة أسرى مضربين عن الطعام. يصف قراقع المخيَّم في هذه السردية بقوله: المخيَّم لا يلد إلا المقابر والمعاقين والمسجونين، والشتاء ينام في شوارع المخيم عاريًا فوق لغة حافية منسية". ويختم بالقول: أربعون يومًا على الرصيف، لم يعد كتابًا توثيقيًّا، إنه قنبلة أطلقها الدهيشي قبل خمسين عامًا، ولكنه يطلقها الآن مرة أخرى" (قراقع 2021، ص: 103–107).

- وأمَّا علي الجعفري فيتربَّع على رأس سردية "أمام البوابة الحديدية"؛ إذ تسلَّم جثمانه محمود أحمد الجعفري اللاجئ من قرية رافات؛ وهو زوج فاطمة الجعفري المذكورة أعلاه، شقيقة الشهداء: محمد وإبراهيم وعلي الجعفري – موضوع هذه الدراسة– الذي طالبت فاطمة باستلام جثمانه، حتى حققت هدفها بعد (15) عامًا. ويصف قراقع تلك اللحظة بالقول:
- "كان (محمود الجعفري) يجلس دائمًا على حصيرته أمام البيت، دخلت إليه جنازة الشهيد علي الجعفري بعد خمسة عشر عاماً من احتجازها في مقابر الأرقام، الجثة لها رائحة إضراب سجن نفحة التاريخي، مليئة بالدم والسعال والإشارات الأبدية، ودخل إليه جنود الاحتلال وضباط المخابرات مئات المرات، اعتقلوه واعتقلوا زوجته، اعتقلوا أولاده وأولاد الجيران، ليتحوّل بيت أبي أحمد إلى ثكنة عسكرية مفتوحة دائمًا لجنود الاحتلال" (قراقع 2021، ص: 177).

يبدو هذا الكتاب، وهو الأحدث بين مجموعة الكتب قيْد التحليل، أنْ قد جمع أوجاع الأسرى وهمومهم، وقضاياهم من جانب. كما أنه أبرز دوْر أهالي الأسرى في تشجيعهم والشدّ على أياديهم؛ أي أنَّ أهالي الأسرى، والمجتمع الفلسطيني على وجه العموم، يشكِّلون حاضنةً نضاليَّةً للأسير، توفر له العوامل جميعها الكافية للصمود والصبر على الأذى الذي يمارسه السّجّان. وأمَّا الشهداء من الأسرى، فإنَّ أهاليهم، والمجتمع من خلفهم، يروْن فيهم مصدر فخر للأجيال.

الاستنتاجات

نستنتج من هذه القراءة المتمعّنة أنَّ الأجيال السابقة من الأسرى الفلسطينيين، وهم، في غالبيَّتهم، عسكريون مقاتلون وقعوا في الأسر إثر الاشتباكات مع العدو، عاشوا ظروفًا سيئة للغاية، لا تليق بالبشر؛ من حيث: الحرمان من عديد من القضايا الحياتية، مثل: الطعام النظيف والصحّيّ، والسكن، والنوم المريح، ونظافة المكان وتهويته، وأما العلاج من الأمراض ومتابعة المرضى بأمراض مزمنة، فنجد أنَّ الطبيب معادٍ للأسير؛ وينفذ تعليمات المحققين القاضية بالتعامل مع الأسير بمنتهى الشراسة وعدم احترام إنسانيَّته... وجاءت تلك الممارسات الاحتلالية بدرجة لا يمكن تصورها. أضف إلى ذلك الحرمان من القراءة والكتابة، بعدم إمكانية امتلاك القلم أو الورقة. وإذا كان هناك كتُبٌ، فإنَّها تكون على مزاج السّجّان الذي يخطِّط لعملية تجهيل الأسير وعزله عن ثقافته وعن مجتمعه.

وعليه، جاءت الإضرابات المتتابعة، بدءًا من عام 1968م، تحت عناوين مختلفة تتعلق بالكرامة، والحقّ في العيش الكريم داخل المعتقل، كما هو حال أسرى الحروب الذين تمتعوا بالحماية الكاملة من خلال إعلانات حقوق الإنسان في الحروب في لاهاي وغيرها من المبادئ والقوانين واللوائح والاتفاقيات الدولية. وفي كلِّ إضراب كانتْ هناك مطالب يتمكَّن الأسرى من تحقيقها، بعد أن يضربوا عن الطعام لأيام أو بضعة أسابيع، فيضعوا سلطات الاحتلال أمام حرج وضيق، ويكشف عن فقدانه للقيَم الإنسانية.

وكمثال على ذلك أورد الرجوب (2015: 52) قول وزير الشرطة الاحتلالية تعليقًا على إضرابات الأسرى الفلسطينيين في سجن عسقلان عامي 1976 و1977م: لقد عمل هؤلاء قبل اعتقالهم على تفجير قنابل تقتل، وها هم الآن يحاربون بقنابل الدعاية! لقد كان لتضحيات الأسرى بالغ الأثر والتأثير في تحقيق تحسينات كثيرة، تراكمت وتتابعت عبر الزمن من إضراب إلى آخر، لعلَّ أبرزها وجود التلفاز والراديو والمكتبات والكنتينة، وغير ذلك من التحسينات التي لا يتَّسع المجال لذكرها.

في تلك المراحل جميعها، حرص الأسرى الفلسطينيون، بما يمتلكون من مستويات متقدمة من الوعي والثقافة والمعرفة، على توثيق دقائق وتفاصيل كلِّ ما جرى في السجون، كما اصطفَّ الكُتَّابُ والمثقفون الفلسطينيون خلف الأسرى، وحرصوا على متابعة همومهم وقضاياهم، والكتابة عنها وتوثيقها...

هكذا، نشأ أدب السجون، الذي أصبح يشكِّل جزءًا مهمًّا وأصيلًا في الرواية الوطنية الفلسطينية، بل الجزء المهم في عملية التحرر الذاتي للفلسطينيين، التي يشكِّل إنتاج المعرفة المقاومة وتوالدها، من جيل إلى جيل، أحد أهمِّ الأسُس والمرتكَزات التي تقوم عليها. وقد جاء نقاش الكتب الثلاثة، في هذه الورقة، لسبْر غوْر هذه الانتاجاتَ الأدبية بأبعادها الفكرية والمعرفية والتوثيقية، لتبيِّن لنا دوْر الأسرى وأثرهم في الأدب الفلسطيني، وما يتركونه من حضور في عقول الأجيال المتتابعة، كنماذج حيّة على المقاومة والتضحية من أجل الحريَّة والتحرُّر.

أمَّا الأسير– الشهيد علي الجعفري، فقد تكرر ذكره في هذه الكتب، كأنموذج للأسير القائد البطل والشجاع في المعركة العسكرية، الذي رفض ما عرضه عليه الاحتلال من حرية مقابل نقل رسالة إلى قائده ياسر عرفات، وآثر البقاء في السجن مع زملائه ورفاقه في السلاح، فواجه السّجّان، وكان أحد القادة الفاعلين في الإضرابات، المتميز في فعله وأدائه، وصدق انتمائه حتى الرمق الأخير من حياته. ومما يعزز رؤيتنا هذه، أنَّ الاحتلال راوغ ورفض تسليم جثمانه، حتى أُرغِمَ على ذلك بعد خمسة عشر عامًا. هكذا، كان علي الجعفري الأنموذج للأسير– الشهيد الذي سطَّر الكاتب عيسى قراقع الصفحة الأخيرة من ملفِّه، وأبحر في وصف اللحظة التاريخية التي عاد فيها عليّ إلى وطنه الذي عشق، ليوارى ثراه الطَّهور، ويستقرَّ فيه إلى الأبد كما أراد. ويبقى علي

الجعفري الأنموذج الحيّ للشعب الفلسطيني للمقاومة والبطولة والفداء. ويشهد على ذلك أنْ يذكره قراقع بعد أربعين سنة ونيّف وكأنه ارتقى للتوّ شهيدًا... ما يعني أنَّ ذكرَه سيستمرُّ كلّما تحدّثنا عن الشهادة والشهداء وعن المقاومة والمقاومين. فهل من أنموذجٍ أجلّ من هذا وأبهى؟!

التوْصيات

هناك توْصية رئيسة يتبنّاها الباحث، وهي العمل الجادّ والفاعل من أجل إنشاء موسوعة لبطولات الأسرى، وفق معايير يتمّ تحديدها من قِبَل مجموعة مختصة، كبطولات الأسرى– الشهداء، والأسرى الذين تميَّزوا بالصمود الأسطوري الذي حطّم أسطورة الدولة العبرية التي لا تُقهر. وغير ذلك من المعايير. ونحن بذلك نوثق لنماذج حيَّة للمقاومة، والتحرُّر الذاتيّ. كما أنَّنا نوفر المعرفة المقاومة للأجيال التالية إلى أنْ تتحقق أهدافنا في التحرُّر والعودة وإقامة الدولة الحرّة المستقلّة وعاصمتها القدس.

المصادر والمراجع باللغة العربية

- حج محمد، فراس (2022/02/14). ندوة دولية عبر زوم لمناقشة أدب الأسرى الفلسطينيين. ديوان العرب. يُنظر الرابط الآتي (شوهد في 2024/04/15):
- https://www.diwanalarab.com// ندوة–دولية–عبر–زوم–لمناقشة–أدب–الأسرى (accessed at 18/03/2022).
- الرجوب، جبريل. (2015). نفحة يتحدث: 35 عامًا على معركة الأمعاء الخاوية. عمّان: دار المناهج للنشر والتوزيع.
- أبو عباية، حافظ، والبيروتي، محمد. (2013). نصب تذكاري. رام الله: وزارة شئون الأسرى والمحررين.
- حمدونة، رأفت. (2016). أدب السجون لا ينفصل عن الأدب العربي. الموقع الالكتروني لـــ "مركز الأسرى للدراسات". يُنظر الرابطين:

(https://alasra.ps/ar/index.php?act=post&id=27645 (accessed at 18/03/2022

.(https://alasra.ps/ar/uploads/documents/888b6605535abd479ec8e25d07a2795e.pdf (accessed at 18/03/2022

- العصا، عزيز. (2022). أدب الأسرى الفلسطينيين: وثائق تبيّن شراسة السجَّان.. وتحفظ للوطن تاريخه. مجلة المقدسية. جامعة القدس. العدد (14). ص: 171–195.
- عيسى، خليل (2021). سَفَرٌ مع سِفْرٍ– رواية "الدهيشي" للكاتب والأديب عيسى قراقع: ثلاث وخمسون حكاية دهيشية تُمَجْهرُ المعاناة بصبغةٍ أدبيةٍ ضافيةٍ. مقال منشور في صحيفة القدس، بتاريخ: 2021/12/16م، ص: 10.
- قراقع، عيسى (2021). الدهيشي. رام الله: وزارة الثقافة الفلسطينية.
- أبو لبن، صالح. (2016). أربعون يومًا على الرصيف. بيت لحم–مخيم الدهيشة: هيئة شؤون الأسرى والمحررين.

References

- Abu Abaya, Hafez and Al-Beiruti, Mohammad. (2013). Memorial (in Arabic). Ramallah: Ministry of Prisoners and Ex-Prisoners Affairs.
- Al assa, Aziz. (2022). Literature of Palestinian prisoners: Documents that show the ferocity of the prison guard...and preserve the nation’s history. Al-Maqdisiya Magazine. Al-Quds University. Number (14). pp. 171-195.
- Hajj Muhammad, Firas (02/14/2022). An international seminar via Zoom to discuss the literature of Palestinian prisoners. Diwan al-Arab. https://www.diwanalarab.com//International-symposium-via-Zoom-to-discuss-prisoners-literature (accessed on 15/4/2024.
- Hamdouna, Raafat. (2016). Prison literature is inseparable from Arabic literature. The website of the Prisoners Center for Studies. https://alasra.ps/ar/index.php?act=post&id=27645; https://alasra.ps/ar/uploads/documents/888b6605535abd479ec8e25d07a2795e.pdf (accessed at 18/03/2022
- Issa, Khalil (2021). Travel with a book - the novel “Dahishi” by the writer and literarian Issa Abu Laban, Saleh. (2016). Forty days on the dock (in Arabic). Bethlehem - Dheisheh Camp: Commission for Prisoners’ and Ex-Prisoners’ Affairs.
- Qaraqe: fifty-three Dahishi stories that highlight suffering with a rich literary tone (in Arabic). An article published in Al-Quds newspaper, dated: 12/16/2021 AD, p. 10.
- Qaraqe, Issa (2021). Al-Dahishi (in Arabic). Ramallah: Palestinian Ministry of Culture.Rajoub, jibril. (2015). Nafha speaks: 35 years since the battle of the empty stomach (in Arabic). Amman: Dar Al-Manhaj for Publishing and Distribution.